

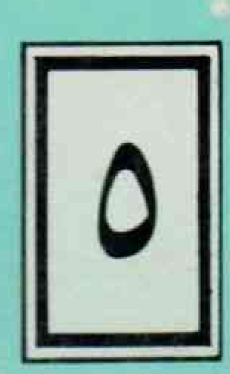


أبو عبيدة بن الجراح



لِكُلِّ أُمَّةٍ
أَمِينٌ ،
وَأَمِينُ هٰذِهِ الأُمَّةِ
أَبُو عُبَيْدَةَ
ابْنُ الجَرَّاحِ

تأليف
الدكتور رشاد دارغوث



دار النفائس

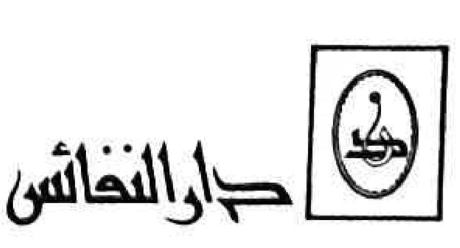


اشتريته من مكتبة أكرم
فـــي 11 / ذو القعدة / 1442 هـ
الموافق 21 / 06 / 2021 م

سرمد حاتم شكر السامرائـــي







للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية صفي الدين
ص.ب ١١/٦٣٤٧ أو ١٤/٥١٥٢
برقياً: دانفايسكو - ت ٨١٠١٩٤
أو ٨٦١٣٦٧ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م
الطبعة الرابعة مصورة بالأوفست عن الطبعة السابقة : ١٤١٢هـ - ١٩٩١م

القائد العام :

في مَنزِل حمَّادٍ ، أحدِ وجوهِ مدينةِ يَثرِب ، أخـذَ الأصحابُ والـزُوّارُ يتـناولـونَ الأَحـداثَ الجارِيةَ ، بالتَحليلِ ، والنَقد الحُرِّ . فقد حرَّرَ الإِسلامُ الفَردَ ، كما حرَّر الجَماعةَ ، مِنْ عُبوديّاتٍ رَضَخَ الناسُ لَها طويلاً ، في عَهد الجاهليّةِ البائِدِ .

ويقولُ صاحبُ المنزل :

ـ لقد أَحسنَ واللهِ الخليفةُ أبو بكرٍ الصِدّيق في تَولِيَةِ أَبي عُبَيدةَ . . . القِيادةَ العامّةَ لِلجَيش .

ويُصـادِقُ الحُضـورُ على هـذا الـرأي ، ويقولون : مَن مِثلُ الصِدّيق يُحسِنُ تقديرَ الرجالِ

المُخلصين ، واختيار القادة الأُمَناءِ .

فأبو عُبيدةَ شَهِد بَدراً . . . إلى جانبِ رسولِ الله ﷺ . وبَقيَ إلى جانبِهِ ، بَعدَ تفرُّقِ أصحابِهِ عَنه ـ بَل مُعظَمِهم .

إذْ لم يَبقَ إلى جانبِ الرسول ، في وَسط المعركة ، سوى خَمسةَ عَشَرَ رَجلاً . كانَ أحدَهم عامرُ بنُ عبدِ الله بنِ الجَرَّاح . . . وهو أبو عبيدةَ ذاتُه .

ويَذكُرُ الحُضورُ أنّ بَدراً كانت أشرَسَ مَعركَةٍ خاضَها الرسولُ . وأنّه ، صَلوات اللهِ عليه ، جُرِحَ فيها . وأن أبا عبيدةَ شارَكَ يومَذاكَ في نَزعِ الحَلقَتَينِ اللَّتين دَخَلتا في وَجهِ النبيِّ ، عَليهِ السَلام .

ويقولُ حَمّاد ، مُسترسِلاً في ذِكرِ فَضائلِ ابنِ الجَرّاح :

ـ أبلَغُ مِن هذا دِلالةً على إخلاصَهِ للنبيِّ أنّه . . .

وهنا يتوقَّفُ الرجُلُ لينظُرَ حَولَه ، بِعُيونٍ تخشى أَن يكونَ ، لِما سَيبوحُ به ، في بعضِ السامِعين ، مِن أَثرٍ سيّءٍ. ولكنَّه بعدَ تَردُّدٍ قالَ مُتابِعاً :

وقتل أباه في سبيل الله :

ـ كانَ الجرَّاحُ ، والدُ عامرٍ ، معَ المشركينَ يُحاربُ رسولَ اللّه ! فأَخذَ يتحدَّى ابنَه ويَقصِدُه . . . مرَّاتٍ، لا مَرَّةً واحدةً . والابنُ البارُّ بِأَبيه ـ وإن ظَلَّ مُشرِكاً ـ يبتَعِدُ عن أَبيه ، ويرفُضُ أَن يُؤ ذِيَهُ احتراماً لِلأُبوَّة .

إلّا أَنَ الأَبَ المُشرِكَ تمادى . وكانَ يقصِدُ أَن يَصِلَ إلى ابنِهِ المُدافِعِ عنِ الرسول ، وعَن الحَقِّ الذي يُمَثِّلُه ، لِكَي يصِلَ عِبْرهُ إلى الرسولِ نفسِه ، فَيَقتلَهُ . . . أيضاً .

وماذا كانَ بإمكان ذَلكَ الفَتى المُؤمِن ، الذي يَحترِمُ أَباهُ ، برَغمِ شِركِهِ ـ اعتِباراً لِلأُبُوّة المُقدَّسة ـ

ووفاءً بحَقِّ إنسانٍ كانَ سَبَبَ وُجودِه . . .

ماذا كانَ عليه أَن يَفعَلَ :

ـ أيترُكُ أباهُ . . . المشرِكَ يقتلُهُ هوَ ليصلَ إلى رسولِ الله ، ويَقضي على حياةِ أَعظَمِ إنسان ، وأَصدقِ رَسول ، محمَّدٍ نبيِّ الله ، وَمُصلحِ هذهِ الأُمّةِ وباعثِ مَجدِها ؟

فَكَّرَ الفَتى في لَحَظات ، في ما سَيُصيبُ الأمّةَ لَو حقَّقَ ذلكَ المُجرمُ المُشرِكُ غايَتَه . وفكَّرَ في ما يَجِبُ عليهِ نَحوَ أَبيه . . . ثُمَّ قارنَ بَينَ جَريمةِ هذا المُشرِكِ التي أَو شَكَ أَن يَقتَرِفَها . . . وبينَ جَريمتِهِ هُو ، لو أَقدَمَ على قَتلِ أَبيه . . .

فَرَجَحت عندَ الفَتى الفِكرةُ الثانيةُ . واختارَ أَهوَنَ الشَرَّين ، وقلبُه يَعصِرهُ الأَلَمُ ، بل أكثَرُ مِن الأَلَم ، فَقَتلَ أَباه الجرّاحَ . . مُضَحيّاً بكلِّ شيء في سَبيلِ رسولِ الله ، وفي سَبيلِ الإسلام .

ويقولُ حمّاد ، وهو يُنهي حَديثَه : ولَولا هـذهِ التضحيةُ التي لا يُقدِمُ عليها إلّا مَن خَلُصَ إيمانُه ، وثَبَتَ يَقينُه ، ولولا مَدَدٌ مِن الله ، لَقُضيَ على الإسلامِ ، في تِلكَ المعركةِ . . . وهو في المَهد .

لذلكَ ، لَقَّبَ الرسوُلُ عليـه السلام هـذا الانسانَ العظيمَ بِلَقبٍ عُرِف بهِ فيما بَعدُ ، وهو : « أمينُ الأُمّة » !

***

أمين الأمة :

وفي أَسواقِ يَثرِبَ لم يَكُن لِلناسِ مِن حديثٍ إلّا ما اتصلَ بِفَتحِ الشامِ . وقد سارتِ الجُيوش إلى هذهِ البلادِ بِقيادةِ أَبي عُبيدةَ بنِ الجرّاح .

ويطمئِنُّ أكثرُ الناسِ إلى أَنّ فتحَ الشامِ سيكونُ يَسيراً . . . سَهلاً ، بعدَ مَوقِعةِ بَدر ، وما ظَهَر فيها مِن بُطولاتِ المؤمنينَ ، وثَباتِهم عَلى دينِ الحَقّ

الـذي اعتنقـوه ، بِـرُغم قِلَّةِ المُسلمين وكَثـرةِ المُشرِكين .

ولكنَّ بعضَ المتشكّكينَ كانوا يَرونَ أَنَ الرومَ ـ أصحابَ بلادِ الشامِ ـ كانوا أقوياء .

فَيَرُدُّ بعضُ المؤمنين بقولِهِ :

ـ الرومُ أَقويـاءُ ، دُونَ شَكٍّ ـ وهُم ثـاني إمبراطوريّة في العالم ـ إلى جانبِ أخصـامِهم الفُرس . ولكنَّ المسلمينَ ، عَلى قِلَّتِهم كانت مَعنويّاتُهم قد قَوِيَت .

وكانَ في بلادِ الشام عَرَبٌ كَثيرون ، قَلوبُهم مَعَ المُسلمين القادمينَ ليحرِّروا الإنسانَ ولِيقيموا دولةَ العَدل في تلكَ الأَصقاع .

ويذكُرُ بعضُ التُجّارِ ما شَاهَدوهُ في بلادِ الرومِ مِن آثارِ ظُلمِ الحُكّام ، وكَراهيَّةِ الشُعوبِ لَهُم ، فضلاً عن أَنَّ الجُيوش المُسْلمـةَ القادمة كانت

موضوعة تحت قيادةٍ رشيدةٍ . فأبو عُبيدةَ أميـرُ الجَيش ، من جِلَّة صحابَةِ الرسول . وكان مِن أوائلِ المُسلمين ، الذين آمنوا بِدَعوةِ الحَقِّ . وقَد هاجرَ مَعَ رسولِ الله مِن مكّة إلى المدينة .

وكانَ أحد الشُهودِ على الاتّفاقِ الذي تَمَّ بينَ الرسولِ وسُهيلٍ بنِ عَمرو ، زعيمِ قُريش . ذاكَ الاتفاقُ الذي كانَ لوضعِ الحَرب (أي تَركها) عَشَرَ سنواتٍ بينَ المُسلمين وبَينَ المُشرِكين مِن قُريش .

ومِن هُنا كانَ رسولُ الله ﷺ يَعتَمِدُ أبا عبيدةَ في الأُمورِ التي تتطلَّبُ الأَمانة ، مِن صاحبِها . والأَمانةُ هي أعلى مراتِبِ اليَقين . وفي الحديث : مَن لا أمانةَ له ، لا دينَ لَه .

ولما جاءت وفودُ نَجران (اليمن) ، بِزعامةِ أُسقُفَيها ، لتقديمِ الطاعةِ إلى رسولِ الله ، وطَلبوا منه أن يبعثَ مَعَهم رجلاً أميناً يقومُ على إحقاقِ

الحُقوق ، قال الرسولُ للوفود اليمنية : لأَبعَثنَّ مَعَكم رجلاً أَميناً ، حَقَّ أَمينٍ !

ثم أشارَ الرسول بيدِهِ الكريمة . فظَنَّ أَبو بكر ، وكانَ حاضراً مَعَ غيرِهِ من جِلَّةِ الصِحابة ، ظَنَّ الصِدّيقُ أَنّه هوَ المقصودُ ، بل تَمنّى أَن يكونَ هو المقصودَ بِذَلكَ الوَصفِ العظيم : أَميناً ، حَقَّ أمين ! وقد صرَّحَ بِهذا أَبو بكرٍ نفسُه ، فيما بَعدُ .

ولكن الرسولَ ﷺ أَشار إلى . . . أَبي عبيدةَ ، لا إلى سِواهُ مِن كِرامِ الصحابةِ الحاضِرين .

ومُنذُ ذلكَ الحينِ عُرِفَ أَبو عُبيدةَ بِلَقبٍ جديدٍ ، أَطلقه عليه الرسولُ ، الذي لا يَنطِقُ عَنِ الهوى ، وهوَ : أَمينُ الأُمَّة ـ كَما ذَكَرنا سابقاً .

ويُروى عنهُ قولُه ، صَلوات اللهِ عليه : « لكلِّ أُمّـةٍ أمينٌ ، وأَمينُ هذهِ الأُمـةِ أَبو عُبيـدةَ بنُ الجَرّاح » .

حديث المؤمنين :

وفي المسجدِ ، يُتابعُ الناسُ تَحدُّثَهم عَمّا يَشغَلُ بالَ الجميع : هذهِ الأحداث التي تَتتابَعُ ، بسُرعة . وهي أَحداث مَصيريّة . وكانَ المسلمون ، في ذلكَ الحين ، مُسلِمينَ حقّاً ، وإيمانُهم باللهِ وبرسولهِ إيماناً لا يَتزعزَعُ . فكانت أُمورُ الدينِ والدولةِ والجَماعة هيَ التي تَستَقطِبُ اهتمامَ جميعِ المُسلمين ، لا منافِعُهم ومَصالِحُهم الخَاصّة .

وقد رأينا أحدَهُم (أبا عبيدة) يُضحّي بِحياةِ أكرمِ إنسانٍ عليه - وهوَ أبوه - لِيَسلَمَ صاحبُ الرِسالة ، كي يَنشُرَ رسالته ، وما استَهدَفَته مِن خَيرٍ لِلبَشَريّة ، وَعدلٍ وإخاءٍ وحُرّيةٍ ومُساواةٍ بينَ الناسِ أجمعين ، لا فضلَ لِأحدٍ مِنهم عَلى آخَر ، إلّا بالتَقوى والعَملِ الصالِحِ ، والعِلمِ النافِع .

ويذكُر أحدُ المُسلمين لرفاقِه أنّ إخلاصَ أبي عُبيدة ، لِلدين ولِرسول ربِّ العالَمين ، لا يَفوقُهُ إلاّ تقديرُهُ لِمناقِبِ غيرِهِ مِن الرِجال .

ويقولُ : لما تُوفِّي الرسولُ ﷺ ، أقبل عُمر بنُ الخطّاب على أبي عُبيدة ، وطلب إليه أن يتولّى الخِلافة . ويقولُ عُمر: أبسُط يَدَكَ لِنبايِعَك ! فإنّك أمينُ هذهِ الأُمّة .

ولكنَّ ابنَ الجرّاح ، بِتواضُعِهِ المَعروف ، رَفَضَ الخِلافة . وقالَ لِعُمَر: أتُبايِعُني يا ابن الخطّاب ، وفَيكم الصِدّيق ، ثاني اثنينِ إذ هُما في الغار ؟

هذا التواضُعُ الكبيرُ في الإنسانِ الكبيرِ ، يُوازي تقديرَهُ الجَميلَ لِمناقبِ الرِجالِ الرجالِ ، مِن مُعاصِريه .

ويُروى عن أُمِّ المُؤمنينَ عائِشةَ ، أَنّ أبا بكر

(وهو والِدُها) دعا ، يومَ اجتمعوا في « السَقيفةِ » ، إلى مُبايعة أَبي عُبيدةَ أَو عُمرَ بـنِ الخَطّاب .

هذهِ الشَمائلُ كلُّها : مِن أَمانةٍ لا تَشـوبُها شائِبة ، إلى تَقديرِ الرجلِ الكبيرِ لِمزَايا أَمثالِهِ مِن الرِجالِ الكِبار ، إلى التَواضُعِ الصادِقِ ونكرانِ الذات ، كلُّها مِن مناقِبِ الإسلام . إنّها مِن أَثَرِ التَربيةِ الإسلاميةِ التي جاءَ بِقواعـدها الـرسولُ العظيم ، في كتابِ اللهِ الكريم: ﴿ولا تبخسوا الناسَ أشياءَهم﴾ .

وكانَ رسولُ اللهِ قد ولّى أَبا عُبيدةَ جَمع صَدَقاتِ بعضِ القَبائل - مُؤتَمِناً إيّاه عَلى الأَموالِ التي يُقدِّمُها المسلمونَ ، وغيرُهم ، إلى بيتِ المالِ . كما أَنّ أَبا بكرٍ ، حينمَا بُويع بالخِلافة ، ولّى أَبا عبيدةَ حِفظَ أَموالِ المُسلمين ، جميعِ أَموالِهم .

فلما تَولّى ابنُ الجَرّاح الإمارةَ على جَيش

الشام ، وفيهِ مِن القادةِ ، أمثالُ يَزيدَ بنِ أبي سُفيان ، وَشرحَبيلَ بنِ حَسَنة . . . جاءت تَوليَتُه تقديراً مِن الخَليفةِ لِمزَايا « أمينِ الأمة » . . . وإيماناً بِمَواهِبهِ التي استحقَّ مِن أجلِها ذَلكَ اللَّقبَ العظيم !

* * *

فتح بصرى :

وتعجّ أسواق يَثرِبَ ـ المدينةِ المنوَّرة ـ بالناس ، وهم يَتبادلونَ التَهاني بما تَمَّ مِن فَتحِ « بُصرى » . . . ويَرون أنَّ ذلكَ فاتِحةُ خَير . ويَدورُ بين المسلمينَ الحِوار ، حَولَ الأَنباءِ الواردة ، أو يُعَلِّقُ بعضُهم عليها ، أَو يُعرِبُ بعضُهم الآخرُ عَن أمانِيِّه وتَطلُّعاتِه ، فيقولُ أَحدُ الشُبّان :

ـ فتحُ بُصرى . . . وهيَ المدينةُ الشاميةُ المحصَّنةُ كانَ فَتحاً كبيراً !

ويذكُرُ الحضورُ أَنّ ذلكَ تَمَّ بعدَ حصارٍ وجُهدٍ ومَعارِكَ ضاريةٍ .ولا سيَّماأَنّ « بُصرى » كانت ، في مَوقِعِها وتَحصينِها ، أَمنَعَ مَدينةٍ في بلادِ الشام .

وكانَ القائدُ الذي فَتَحها هو شَرحَبيلُ بـنُ حَسَنة الذي كان يعمَلُ بتوجيهِ أَميرِ الجيش أَبي عُبيدة ، وينفِّذُ تَوصياتِه وإرشاداتِه .

تلك التوصيات والإرشادات التي زوَّد بها الخليفةُ أَبا عُبيدة ، حينما خَرج لِوَداعِه ، بِوَصفِه أُميراً لجيشِ الشام .

يعمل بتوصيات أبي بكر :

أَوصاه أبو بكرٍ الصدّيق وصيَّةَ الإنسانِ لِلإنسان ، بأَخيهِ الإنسان . وكذلكَ أَوصاه خَيراً بالـرُهبانِ وأَدِيرَتِهم ، وبِالحَيـوان والشَجَرة . . . لا تؤذوا أحداً ، ولا تَقطعوا شَجَرة .

تلكَ كانت أَخلاقية الحَرب الإسلامية . إنّها

أخلاقيّةٌ إنسانيّة ، لا تَعـرِفُ الفَتك والتَخـريبَ والتَدميرَ والتَحريق . إنها حَـربٌ وِقائيّـةٌ أرادَها المُسلمـون لِيَدفعـوا ، عَن أنفُسِهم وعَن دِينِهم ، الأذى ، ويَنشُروا كلمةَ الحَقّ ، وروحَ العَدل ، ومَعنى الإخاءِ ، والمساواةِ ، في العالَم .

لِذلكَ حينَما شَعَر أبو عبيدةَ أن فَتح « بُصرى » قد استَعصى ، وأنَّ المُسلمين بِحاجةٍ إلى مَدَدٍ ، أرسل إلى الخليفة طَلَباً بِذلك . فأَمَدَّه أبو بكر . . . بِجَيش على رأسِهِ خَالدُ بـنُ الوَليد . وكان « خالدُ » يُعرَفُ بِلَقب « سَيف الله » . وقد جعَلَه الخليفةُ أميراً عَلى جميعِ القَادة ، بِمَن فيهم أبو عُبيدَةَ بنُ الجرّاحِ .

تحت قيادة خالد :

وقد تساءل الناس كيفَ كانَ ذلك ؟ وأبو عبيدةَ « أمينُ هذهِ الأمّة » . وهَو أكبرُ سِنّاً مِن خالد . وهوَ

أَسبَقُ إلى الإسلامِ مِن خالِد .

لكنَّ الإسلام نفسَه ، في نَظرتِهِ الحَضارّيةِ إلى الإنسان ، ارتَفَع عن هذِهِ الاعِتبارات ، وقَدَّر كلَّ امرىءٍ بما يَعمَلُه ، لِلصالحِ العامّ ، أو بما يستطيعُ أَن يَعمَلَه . وَقدرُ كُلِّ امرىءٍ ما كانَ يُحسِنُه .

هذا في نَظَرِ الإسلام ، وفي مَوقعة «بُصرى» كانَ خالدُ أَقدرَ على الحَسمِ العاجِل . فَجَسَدُ خالدٍ الضَخمُ ،ولِحيتُهُ العَريضة ، وقامَتُه الطَويلة ، تُلقي الرُعبَ في قُلوبِ الأَعداء .

وفوق ذلكَ كانت شِدَّةُ خالدٍ المعروفةُ ، التي أثبتها في معارِكِهِ كلِّها ، مُنذُ حُروبِ « الرِدّة » حَتى فَتحِ بُصرى ، كانت تلكَ الشِدَّةُ تُرجِّح كِفّتَه عَلى جميعِ الكِبارِ مِن قادةِ الجَيشِ المُعاصرين له .

والشَيءُ الجَميلُ الرائعُ الذي ذَكَرَهُ الناسُ ، في هذهِ المُناسَبة ، هوَ موقِفُ أَبي عُبيدةَ ذاتِه . إنّه

لم يرفُض إمارةَ خالدٍ عَليه . . . ذلكَ بأَنَّ أبا عبيدةَ كـانَ يعمل مُخلِصاً لِلّهِ ولرسـولِهِ ولِـلإسـلامِ وللمُسلِمين . فما همَّه أن يكَونَ قائداً أعلى ، أو جُنديًا . . . . بسيطا ، ما دامَ يُؤَدِّي واجِبَه ، عَلى الوَجهِ الأَفضل .

تِلكَ حِكَمٌ في مآثرِ الصِحابةِ تهزُّ الوُجدانَ الإنسانيِّ لِليَوم ، وأروعُ ما فيها ، عِندَ أبي عبيدة ، هذا التواضُعُ ، ولِينُ الجانب ، ذلكَ بأَنّ هَذهِ المَأثَرةَ هي مِن القِيمِ الإسلاميةِ التي حثَّ عليها الكِتابُ الكريم ، في خطابهِ للنبيِّ الكريم : ﴿ولَو كُنتَ فَظّاً غَليظَ القَلبِ لانفضُّوا مِن حَولِك !﴾ .

صدق الله العظيم !

***

في دمشق :

وَيَنتَقِلُ حمّادُ بأَهله ، مِن مدينة يَثربَ ، إلى

دمشقَ ، بَعد فتحها ، كما فَعلَ الكثيـرونُ مِن المُسلمين . فيدورُ هُنا، كما كان يدورُ هُناك ، حديثٌ لا ينقطِعُ حَولَ ما رافقَ الفَتحَ مِن أعمالٍ مَناقِبيّة ، وما دَلَّت عليهِ مِن دِلالاتِ العـافيَة ، والقُوّة ، في الدَولةِ الناشِئة .

هذا الفَتحُ الذي أَتمَّه اللّهُ على يَدَي أَبي عبيدةَ ابنِ الجرّاح ، صلحاً ، فدَخل دمشقَ مِن « بابِ الجابِية » ، وهوَ البابُ الغَربي للمدينةِ الكَبيرة . كما تَمَّ حَرباً على يَديَ خالدِ بنِ الوَليد ، الذي دَخَل دمشقَ مِن « البابِ الشرقيّ » . . .

هذا الفتحُ كان خطوَةً سَتُعقِبُها خطواتُ ، إن شاء الله . يقولُ حمّادُ هذا ، وَيزيد :

- إن أُمّتَنا . . . طالمَا استعبَدَها اليَهودُ في الـداخِل ، اقتصـادياً . والفـرسُ والـرومُ ، من الخارجِ سياسيّاً وعَسكريّا . . . هذهِ الأُمّةُ نَهضت

الآنَ ، بفَضـلِ الإسلام ، نَهضت مِن رُقـادِها الطَويل . وهي أُمّة حَضاريّة ، أغنَت العالَمَ القديمَ بتُـراثها الأدبيّ . . مِن شِعـرٍ راقٍ ، وأساطيـرَ مَلحَمية ، وتجارةٍ عالَمية .

ويستدركُ أحدُ الحُضورِ بالقَول :

ـ إن أبا عُبيدةَ عادَ فأتمَّ الفتحَ صلحاً . . فيما بعدُ ، فكانَ فتحُهُ هذا هو الفَتحَ الثاني لدمشق ، وبعد حصار طويل ، الفتحِ الذي استمرَّ ، واستَقَرَّ بعدهُ العَربُ في أجمَلِ بِقاع الدُنيا .

أمكنَ ذلك ، بَعد أن فَتحَ أبو عبيدةَ مدينةَ «مُؤاب» ـ في البَلقاء، بعد بُصرى . الأمرُ الذي يسَّرَ ذلكَ الفَتحَ الجَديد ، دونَ خسائِرَ كثيرةٍ .

ويتساءَلُ حَمّاد : تُرى لو بَقيَ خالِدُ على رَأس جَيشِ العِـراق ، أما كانَ فتحُ دمشقَ أَقَلَّ خسائِرَ !

إلّا أنّ امرأته نائلة ، وكانت المرأةُ العَربيّة

المُسلمة تُشارِكُ الرَّجُلَ في عَملِهِ وتفكيرِه ، قـالت :

ـ إن خالداً مِن مُعجزاتِ خَلقِ الله . . . في شَجاعته ، وشِدّةِ بَطشِـه ، وَمهابتِـهِ ، وقُوَّتِـه . تَحدّثت إليَّ أمسِ جارتُنا الروميّة . . . فقالت إنّها لم تشـاهِدْ فـارساً مِثْله ، طـويلَ الجِسم ، ضَخم الهَيكل ، واسِع العَينين ، كثيفَ الحاجَبين، كبيرَ العِمامة . وبرغمِ أثَرِ الجُدَريِّ في وَجهِ خالد ، كانَ الشَـررُ يتطايـرُ مِن عَينَيه ، وهـوَ يَركَبُ جَـوادَهُ الأشهـب ، وأمامَه رايتُهُ السَوداء المعروفةُ بِلَقبِ « العُقاب » .

ويَزيدُ ابنُ حمّادٍ بقولِهِ :

ـ وأبو عُبيدة لا يَقِلُّ مَهابَةً عَن خالد ، وإن كان قَد فَقَد اثنَتَين مِن أسنانِه الأماميّة ، فهو أهتَم[1] .

---

(١) الأهتم من فقد أحد اسنانه الأمامية .

وذلكَ دليلٌ آخرُ على بَلائِه في المواقِعِ التي خاضَها إلى جانبِ رسولِ الله . . .

وتذكرُ نائلة أن خالداً كان يحمِلُ في عمامته خصلةً مِن شَعرِ الرَسول . . . . يتفاءَلُ بها .

وبالفِعل باركَ الرَسولُ خالداً ، بعد معركةِ «مُؤتَة» ، وبلائِهِ الحَسنِ فيها . ولقَّبَهُ عليهِ السلامُ « بسيفِ الإسلام » ، كما لقَّب مِن قَبلُ أبا عبيدةَ « بأمينِ الأُمّة ! »

ويُخَيَّلُ إلى حمّاد أنَ الحديثَ أخذ يدورُ للمفاضَلةِ بينَ الرُجلين العَظيمَين . فيقطعُ عَلى المتحاوِرينَ كلامَهم ، ويقول :

ـ لَسنا في صَدَدِ المُقاضلة . . . بين عَظيمين مِن عُظماءِ رِجالِ الإسلامِ الأَفذاذ . وأَفهمُ مِن كلّ ما دار مِن حَديثٍ أَنَّ لِينَ أَبي عُبيدة يُقرِّبُ على المُسلمين البعيد ، ويُسهِّلُ الصَعب .

حينئذ تقول نائلة بلهجة المنتصرة :

ـ هذا ما سمعتُه من جارتنا الروميّة فهي قالت لي : إن أهلَ دِمشق يفضِّلون لِينَ أبي عبيدةَ على شِدّةِ ابنِ الوَليد .

وتابعَ أبو عبيدة ، بعدَ فَتح دِمشقَ صُلحاً ، مَسيرتَه المظفَّرةَ، فَفَتح بعلَبَكَّ وحِمصَ وحَماه . . . وتتمنّى نائلة أن يكونَ ذلكَ الفَتحُ صلحاً ـ فهيَ أمٌّ تَعرِف ما تُقاسيه الأُمّهاتُ في سبيل . . . مَواليدِهنّ .

ويطمئنها حمّاد ، زَوجها ، بقولِهِ :

ـ قولي إن شاءَ الله . فَذَلك أقربُ إلى طبيعةِ هذا القائدِ العَظيم .

* * *

أعاد الجزية :

وفي أسواقِ دمشقَ العامرةِ ، كما في أسواقِ

مدينةِ يثـربَ ، كانَ النـاسُ يتناولـون الأَحداثَ الجارية . فكأَنَّ أَلسِنتَهم هيَ أَقلامُ الصُحفيّينَ اليَوم ، وَمجالِسَهم هي صَفَحاتُ الصُحفِ في زمانِنا .

فيقول أَحدُ القادمينَ مِن حِمص :

ـ إن ما حدَثَ هُناك يدخُل في بابِ المُعجزاتِ حقاً . . .

ويتساءَل الناسُ :

ـ وأَيَّةُ مُعجزة بَعد فتح بُصرى الحَصينةِ ، ودمشقَ العَظيمة ؟

فيقولُ القادِمُ مِن حِمص :

ـ تعلمونَ أَن المُسلمين ارتدُّوا عَن بعضِ مُدُنِ الشام . . . استعداداً لمعركةِ « اليَرموك » . فأَرجعوا إلى أَهـل تلكَ المُدُن ـ ومنهـا حِمص ـ قيمـةَ « الجزية » ـ الضريبة التي استَوفوها مِنهم حينَ

الفَتح . وكان ذلك عملاً بروحِ الإسلام . . .
فالمسلمونَ لم يَعودوا قادرينَ على حِمايةِ الأهالي ، لِقاءَ تلكَ الجزية ـ إذ **اضطُرّوا** لِلجَلاءِ المُؤَقّت ، فَأَرجَعوا إلى أَهلِ حِمصَ أموالَهم .

فهل تَدرونَ بماذا أَجابَ أَهلُ حِمص؟ قالوا لِلمسلِمين : أَبقوا المالَ معكَم . . **لَوِلاَيَتُكُم** وَعدلُكُم أَحبُّ إلينا مما كُنّا فيهِ مِن الظُلمِ والغَشم (الاستبداد) .

ويَعلو هُتافُ الحُضور . . مردِّدينَ :
ـ حقّاً إن هذا لَمِن المُعجزات !
ـ إنّها مُعجِزةُ العَدلِ . . .
ـ إنّه العَدلُ الأَصيل
ـ إنه عدَلُ الإسلام !

وبالفِعلِ كانَ عَدلُ الإسلامِ أَقوى مِن الجُيوش ، لأنه فَتحَ أمامَهم الأَبوابَ المُحصَّنة ،

والحُصونَ المَتينة ، وقلوبَ العِباد ، قبلَ كُلِّ شيء، وخاصّةً قلوبَ الشُعوبِ المُستضعَفة ، والمحرومة ، والمُستَعبَدة .

ويتابع الحمصيّ قائلاً :

ـ ثم لمّا عادَ المُسلمون ، بَعد نَصرِهم الساحقِ على الروم، في مَوقِعة«اليَرموك»ـ في فِلسطين ـ عادوا لِيَخْترقوا جميعَ الحُصون . . . بِسيُوفهم ، وبالأَخص بِعَدلِهم ، ورَحمَتِهم وسائرِ الشَمائِل والمَناقِبِ الإِسلاميّة . فَسقَطت دمشقُ لِلمرّةِ الثانية ـ بينَ أَيديهم ، وكذلك حِمصُ وسواها . . . من المُدنِ الشامِية . سقَطت جميعُها ، الواحدَةُ بعدَ الأُخرى ، بَعد سُقوطِ دِمشق .

عودة الى القيادة العامة :

وقد حَدَث في أَثناءِ مَعركةِ « اليرموكِ »

الفاصلة ، أَن توفِّي الخَليفةُ الأولُ أبو بَكرٍ الصِدّيق ، رَحِمَه الله . وتَوَلّى الخِلافةَ بعدَهُ عُمرُ بنُ الخَطّاب . فارتَأَى الخليفةُ الجَديدُ أَن يَحصُرَ إمارة الجَيشِ بأَبي عُبيدةَ ، وَحدَه .

ويقول حّماد :

- كانَ هذا مُنتظراً . . . بعدَ أَن تَمَّ فَتحُ بلادِ الشام ، وأَصبحت البلادُ بحاجةٍ إلى رَجلِ إدارة ، ودِينٍ ، وتَنظيم . . . بل إلى رجل سِلمٍ ولِين .

فكانت توليـةُ أبي عُبيدة ، لِما يتمتَّعُ بِهِ مِن تلك الصِفـات . . . التي تَتَلاءَمُ مَعَ تَطلُّعـاتِ أَميرِ المؤمنينَ عُمر . . . فقد كانَ الخليفةُ الجديدُ رجلَ تنظيمٍ وتَخطيط . . . يَعمَلُ على تأسيسِ الدَولة الجَديدة . فأنشأ « بَيتَ المال » ، اولاً . وهو خِزانةُ الدَولة . ثم رَفعَ قيمةَ الجزية على غيرِ المسلمين ، ليغذّيَ بالمالِ تلك الخِزانة ، بالإضافة إلى سائرِ

الوارداتِ الضَريبيّة ، كالزكاةِ ، على المسلمين ، والخراج ، على الأراضي ، والصدقات وغيرها . والمالُ عَصَبُ الدَولةِ والأعمالِ العُمرانيّة .

وكانَ رفعُ قيمةِ الجِزية استناداً إلى دِراسةٍ تَبَيَّنَ مَعَها أَن الأَرباحَ تزايدت ، بعدَ الازدِهارِ الذي عَمَّ البلادَ ، فكانَ مِن الواجبِ أَن يَدفَعَ الناسُ جُزءاً مِن أَرباحِهم الوَفيرةِ لِلدولةِ التي تَحميهم ، ودونَ أَن تُرهقَهم الضَريبة .

***

عمر في دمشق :

وفي منزِل حمّاد ، في دِمشق ، كانَ أهلُ الدارِ وضيوفُهم يتحدّثونَ أَيضاً عن شُغلِهم الشاغِلِ ، قبلَ أَن ينصرفوا إلى أَعمالِهم او إلى الصَلاة ، وبعدَ أن يَعودوا مِنها . فيقولُ أحدُ الضُيوف :

ـ سمِعتُ نَبأً عَن مَجيء أمير المؤمنين عُمرَ إلى

دمشق ! رُبَّما لِلاحتِفالِ بالفَتح العَظيم . . . الفتحِ الذي أكسَبَ الإسلامَ مَهابةً سَيَجني ثِمارَها في العالَمِ كُلِّه !

ويقولُ حمَّاد :

ـ الحَمدُ لله الذي يَسَّرَ لِلإِسـلام . . . قَهر الرومِ وجلاءَهم عن أَجملِ بُقْعةٍ في الدُنيا . فهذا يبعَثُ في نفوسِنا ثِقةً لا تَقِلُّ أَهميَّةً عَن مكاسِبِ الفَيءِ والمنافعِ الأُخرى . ومِن حَقِّ ابنِ الخَطّاب أن يأتيَ لِيَشهدَ ذلكَ كُلَّه بعَينَيه ، ويَجني ثمراتِ جُهودِهِ وحِكمتهِ في قيادتِه . وإن كان عُمرُ أَبعدَ الناسِ عَن طَلبِ الجاهِ ، وهو الذي باتَ مضرَبَ مَثَلٍ في زُهدِه . . .

وَيزيد ابنُ حمّاد بقولِه :

ـ ومِثلُهُ أَبو عبيدةَ . . . أميرُ الجيوش . إنّهما مـن مَدرسـةٍ واحِـدةٍ ، مدرسةِ رسولِ الله ، فهو

يَعيش في منزِل مُتواضعٍ . ليسَ فيهِ من رِياش الشامِ أو طَنَافسِ الرومِ إلّا لِبدةٌ يُصلّي عليها ، وَينامُ فيها . . . على الأرض . لا عَلى سَرير !

ويقول أحدُ الضُيوف :

ـ غَيرُ مَعقول ! كيف يكونُ ذلــك كذَلكَ وهوَ الأميرُ ، تُجبىٰ إليه الأَموالُ وتَعنو لهُ الرِقاب ؟

* * *

وسُرعانَ ما تعالت في أُسواقِ دمشقَ أصواتٌ تنادي بالبُشرى :

- أَميرُ المؤمنين قادِمٌ إلى دِمَشقَ !

ويتساءَل الناسُ عن الباعثِ الذي حَملَ الخليفةَ على تَجَشُّم المِشَاقِّ ، في السَفرِ مِن المدينة المُنوَّرةِ إلى دمشقِ الشام . . . هذهِ المسافةُ الشاسعةُ ، دونَ أن يكونَ وراءَ ذلكَ مُبرِّرٌ ظاهرٌ !

وَلَئِن كانت همَّةُ عمرَ لا تَتَهيَّبُ الصِعابَ ، وشبابُه لا يَبلى ، فَقد كانَ في مِثل سِنِّ أَبي عُبيدة ، أميرِ الجُيوش . . . أي في إبّانِ الكهُولة ، وهيَ خَريفُ الحياة . وهذا الخَريفُ يحمِلُ في ثَناياهُ شيئاً مِن الشباب ، ربيعِ العُمر ، وشيئاً مِن الشيخوخة ، وهي شِتاءُ العُمر ، وسِنُّ العَجز .

إلّا أَنَّ عمرَ كانَ يدعو أَبا عبيدة « أخي » - فهو أخٌ للخليفةِ لم تَلِده أُمّه ، أَخٌ بالإسلام ، ومَناقِبه ، وَشيمِه ، فصارَ الرجلانِ ، وهُما مِن جِلّة صِحابةِ رسولِ الله ، صارا أَخوَين . . . ﴿ إنّما المؤمنون إخوة ﴾. والخليفةُ وأَميرُ الجُيوش مِن أَعظمِ المؤمنين ، وخِيارِهم .

كما تساءلت نائلةَ زوجةُ حمّاد عَن تلكَ الزيارةِ المُرتَقَبة ، مِن أَميرِ المؤمنين لِدِمشق ، وإمكانِها في وقتٍ ما بَرِحت القُدسُ فيهِ مُحاصَرَةً . . . ؟

فبعد أن فازَ المسلمونَ فوزاً ساحقاً في معركة « اليَرموك » الفاصلة ، رَأى الخليفةُ عُمر أن يزورَ دِمشق . وكانَ قد ولّى أَبا عبيدةَ إمارة الجيوشِ في جميعِ البلادِ المُمتدةِ مِن الشمَال ، على حُدود الأناضول ، إلى الجَنوب ، عِندَ حُدودِ مِصر .

وهيَ بلادٌ واسعةٌ شاسِعةٌ ، طالَما حَلِمَ العرَبُ بها . . . وبِخَيراتِها . فَدَعوها بلاَد « الخَمر والخَمير » .

ومتى استكملَ المسلمونَ إخضاعَ بيتِ المَقدس ، ومَدينةِ قيساريَّة ، في جَنوبِ بلادِ الشامِ ، وقِنسرينَ في شَمالها ، تَمَّ لَهم الاستيلاءُ على كامِلِ هذهِ البُقعةِ ، مِن جِنان الأَرض المَعروفة .

ويحمَدُ اللّهَ المسلمونَ على هذا الفَتح اليَسير أي السَهل ، بل هذا الفتحِ المُبين . ويَرون فيهِ عِزاً

ومجداً لَهم ولِسائرِ المؤمنين .

وفي الأَسواق ، أَخذَ الناسُ يتبادلون البُشرى بدلاً مِن التحيَّةِ المألوفة . فيقول أَحَدُهم لِلآخر : أَبشِر يا سيِّدي ! أَميرُ المؤمنين وَصَل . . . وَصَل بِسلامةِ الله .

وفي الواقع وَصل أَميرُ المؤمنينَ عُمر الى دمشق ، ونَزَل في مُعَسكر « الجابية » ، القائمِ في مَدخلِ المدينةِ الجَنوبّي الغَربّي .

وقد استقبَله أُمراءُ الجُند ، وعظماءُ الناس ، فما اهتَمّ عُمر بغيرِ السُؤال عن أَخيه . . . أَبي عُبيدة ، قائلاً لِمَن حولَه ، بِلهفةٍ وحَنانٍ :

ـ أَينَ أَخي ؟

وسأَلَه الناس مُتَعجِّبينَ : مَن تَعني يا أَميرَ المؤمنين ؟ فأجاب الخليفة ، متعجِّباً بدوره مِن تساؤلِهم ، وتعجُّبِهم :

ـ أبو عبيدة ! ومَن غَيرُه ؟

حينَئذٍ طَمأَنَه مُحدِّثوه إلى سلامةِ أَخيه ، وقالوا له : يَأتيكَ الآنَ .

وراحوا يتناجَونَ في سِرِّ تَغَيُّبِ أَميرِ الجيوش ، بَدلاً مِن أن يكونَ على رأسِ مُستَقبلي الخَليفة .

وقال بعضهم لبعض : لعلَّه تواضعُ أَبي عبيدةَ ، وعُزوفُه عن مظاهرِ الأُبَّهة ، وزُهدُه . . . وَتَقَشُّفُه !

وأَخيراً قَدِمَ أَبو عبيدةَ لِلسلامِ على الخَليفةِ . وقد جاءَ راكباً ناقةً مَخطومةً (مربوطةً بأنفها) ، كما يفعَلُ أَيُّ رجلٍ بَدويٍّ فَقير !

وتعجَّبَ بعضُ الناس ! وتساءَلوا عَن الحَرير ، حريرِ الشام ، ودِمَقسِ الروم ، والمذهَّبات والمفضَّضاتِ مِن أَزِمَّة الإِبل . . . . وأَربِطةِ الخَيل ! وقالوا :

ـ لو شاءَ أبو عبيدةَ لجاءَ في أبهى زينةٍ وأعظمِ مَوكب ، عَلى فَرَسٍ مُطَهمَّة . ولكنَّه آثَرَ أن يَبقى على ما . . . تَعودَّه . فأَقبَلَ يرتدي أثوابَه الخَشِنة ، التي لم تكُن دونَ أثوابِ الخَليفة عُمَر ، ولا أَحسَنَ منها . . . فَهُما أَخَوانِ على كلِّ حال : في الزُهدِ والتَقَشُّفِ والتَواضع ، والإِيثار .

عمر يزور بيت قائده :

وبعدَ السلام . . . طَلبَ الخَليفةُ مِن أَميرِ الجيوش أَن يصحَبَهُ لِيزورَهُ في منزِلِه !

قال الناس : تلكَ الزيارةُ تأتي تكريماً لأميرِ الجُيوشِ . وقال آخَرُون : بَل لِشيءٍ آخَر ، مَعَ التكريم !

ثم أَخذوا يفكِّرون : تُرى أيرغَبُ الخليفةُ في التَعرُّفِ إلى أَحوالِ الأمير ، عن قُربٍ ، كما كان يفعَلُ للتعرُّف إلى أحوال الرَعيّة . . . أَحوالِهم

الخاصّة ، في مَعاشِهم ، ومَسكَنِهم ، ومَلبَسِهِم ؟ أهذا مِن عَمَل الراعي المَسؤول عَن رَعيَّتِه ؟ وماذا عَساهُ واجداً في مَنزِلِ أبي عبيدة ! يقـولون : أبىٰ المالُ إلّاً أن يذُرَّ قَرنَيه . فإذا زادَ عن الحاجة ، ظَهَرَ في كلِّ مَكانٍ ، تَرَفاً مُفسِداً ، ونَعيماً مزَيفاً . . . وإسرافاً في المأكلِ والمشرَب . . .

ويقولُ مَن سَمِعَ حديثَ الرَجُلَين ، إنَّ أَبا عُبيدة أجاب الخليفة ، مُتواضعاً :

ـ وماذا تصنَعُ عِندي ؟ ما تريدُ إلّا أَن تعصِرَ عَينيكَ عَليَّ ـ أَي تبكي !

ذلكَ ما كانَ يعرِفُه الخليفةُ ، مِن نزاهةِ « أخيه » وخُلُقِه المستقيمِ ، وَوَرَعِه !

ولكنَّ الراعيَ المَسؤولَ لا يَكتفي بأَن يَعرِف ، ولا يحكُمُ على المَظاهِرِ ، وعَلى الظواهِر . بل عَليه أَن يتقصىّ الأُمور ، ويَستَقصي الحَقائقَ ، كَيلا يأتي

حكمُـه ، استناداً إلى حَدسِه أو شعورِه الخاصِّ ، حُكماً ناقصاً أو مُغرِضاً .

الحاكمُ المسؤولُ لا يَستنِدُ حتى الى قناعتِهِ الذاتيّةِ ، بل عليه أن يتعـرَّفَ إلى عُمّالِـه أي الموظّفين ، في دَولتِه ، وأَن يطَّلِعَ على حَياتهم الخاصّة ، وتصرُّفاتِهم ، مُراقِباً ، مُدقِّقا لِيختَبِرَهم كما يعرفُهم ويختبـرُهم في حياتِهم العَمليّـة ، ومُمَارَساتِهم اليَوميّة !

هذهِ كانت خُطّة أَميرِ المؤمنين عُمرَ ، في الحُكم . ويُروى أَنّه جاءَه ، مّرةً ، أَحَدُ الشُهود ، لِيُعَرِّفَ أو يشهَدَ على بعضِ المُتقاضين لَدَيه . فسأَل الخليفةُ الشاهدَ : هل جاوَرتَه ؟ هل عامَلتَه بالأَصفر والأَبيض ، أَي بالذهبِ والفِضّة ؟ ولما أَجاب الشاهِدُ سَلباً ، قالَ له الخليفةُ : إِذن أَنتَ لا تَعرِفُه ، فكَيفَ تشهَدُ لَه أو عَليه ؟

بكاء عمر في منزل أبي عبيدة :

وهكذا . . دَخلَ أميـرُ المؤمنين منزِلَ ابنِ الجَرّاح ، فماذا رَأى ؟ في الواقعِ لم يرَ شيئاً . وذلك ما كان يتوقَّعُه . وبرغمِ ذلكَ سأَلَه : أينَ مَتاعُك ؟

وتلفَّتَ أبو عبيدةَ بِدَورِه ، فلم يشاهِدْ عنده متاعاً ، مِما غَلا أو رَخُص ، إلاّ لِبدةَ الصَلاة ، وفِراشاً مهترِئا للنَوم . . . وزادَ عُمرُ : وصحفةً وقُربةً قديمة . . . وأَنت أميرٌ للجيوش !

ويقول الناس : وأيُّ أَمير ؟ أَميرٌ ترضَخُ لِسُلطانِهِ أُلوفُ الأُلوفِ مِن العِباد ، وتُجبَى إليه أُلوفُ الأُلوفِ مِن الدنانيرِ والدراهِم . . . وغيرِها من الأَموال .

ومَعَ هذا كلِّه رأى الخليفةُ أَن يُتابعَ استقصاءَه لِيرى ما يأكُلُه صاحبُه من المآكل . فطلبَ مِنهُ طعاماً . فهل كانَ الخليفةُ جائعاً أَم إنَّه أَراد مَزيداً من

المَعرفةِ عن أحوالِ صاحبِه ؟

وبالطَبع قدَّمَ أبو عبيدة للخليفةِ ما عِنده مِن طعام . . كُسَيراتٍ مِن الخُبز اليابِس . لم يكُن عِندَه غيرُها !

حينَئذٍ بكَى عُمر . . . عَصَرَ عينَيهِ حقّاً على أخيه ، فقد شاهَد ما يُبكي القَلبَ لا العَينينِ وحدَهُما . ولكن كانَ بكاءَ الفَخرِ والاعتِزازِ بهذا المُسلمِ الكَبير ، والمؤمن الصادق ، الذي يَعرِفُ ـ ويمارِسُ فِعلاً ـ أن الحِرمانَ هوَ البُطولة . وقد قال الشاعر :

إنَّ البُطولةَ أن تَموتَ مِن الظَما
ليسَ البُطولةُ أن تَعُبَّ الماءَ !

تَحرِمُ نفسَك ـ وأنتَ قادرٌ على أن تنالَ كلَّ شيء ـ إيثاراً ، وزُهداً ، وترَفُّعاً . وزادَ أبو عبيدة ، وفي صوتِهِ حَنان المُؤاسي ، وصِدقُ المُؤمِن :

ـ يا أميرَ المؤمنين . . . يكفيكَ ما بَلَّغَكَ المَقيل ! (ويعني القبر . . .)

ويزدادُ إعجابُ الناسِ بهذهِ الأخلاقِ الإسلاميَّةِ التي يَصدُرُ عَنها هذانِ المُسلمانِ العَظيمان .

وتقول عبلةُ ، إحدى بناتِ حمّاد :

ـ حقّا . . يكفي الإنسانَ ما يُساعده . . . على العَيش بِصحّةٍ ، حتى يَستَرِدَّ اللّهُ أمانَتَه ، وما زادَ فهوَ **إسرافُ** وتَبذير ! ﴿إنَ المُسرفينَ كانوا إخوانَ الشَّياطين﴾

صدق الله العظيم !

لكنَّ الخليفة ، بَعدَ أن كفكَفَ دَمعَه ، وابتَلَعَ بعضَ كُسيراتِ الخبز ، قالَ لأَخيهِ ، وهو بالغُ التأثُّر : غيَّرتنا الدُنيا كلَّنا ، **غيرَك** يا أَبا عُبيدة !

ثم يغمض عمرُ عَينيه ، لِيرى رسولَ اللّه

(ﷺ) ، وقد راحَ يتناول عشاءَه ، عندَ زوجتهِ أمّ سَلَمة ، بعضَ كُسيَراتٍ وقليلاً مِن الخَلّ ثم يقول لها : نِعم الأدمُ الخَلُّ يا أُمَّ سَلَمة !

* * *

الطاعون :

وتمضي الأَيّام . . . وتَتَوالى الأحداثُ ، بين سارَّة مُفرِحة ، وأُخرى تَهلَعُ لَها القُلوب . فيتحدَّثُ الناسُ بها جميعاً . . . ويقولُ أَحَدُهم :

ـ هذا الطاعونُ . . . أَجارنَا اللّهُ مِنه ! ويَسري الخَبَرُ كالنارِ في الهشيم: الطاعونُ يَنتَشِرُ في فِلسطين ، في سَهل اليَهوديّة وخاصّةَ في جُند المُسلمين ، في عَمَواس ، بينَ بيتِ المَقدس والرَملة .

إنَّه يفتُكُ بالأُلوفِ مِن جُند المُسلمين . وكانَ أبو عبيدةَ هُناكَ على رأسِ الجُيوش . فكانَ أخشى

ما خَشِيَهُ الناسُ أن يُصيبَ الداءُ الوبيلُ « أمينَ الأمّة » . . . الذي كانَ يَسهرُ على جُنده ، وعلى الناسِ سَهَرَ الراعي المسؤولِ عَن رعيَّتِهِ ، لا يُفارِقُها في السَرّاءِ ولا في الضَّراء . إنّه كالأبِ يَسهَرُ على أبنائه ، ولا يُوكِلُ أَمرَهُم إلى غَيرِه .

وكانَ أبو عبيدةَ يُحِبّ الناسَ ، وينظُرُ إليهم نِظرةَ الأَخ إلى إخوانِه ، بِرغمِ مَنزِلَتِه الرَفيعة ، وجاهِهِ العَريض . كانَ يقولُ لهم : « أيُّها الناس ! إني امرُؤٌ مِن قُرَيش . وما مِنكُم مِن أَحدٍ ، أَحمرَ ولا أَسودَ ، يَفضُلُني بِتَقوى إلّا وَدِدتُ أنّي في مِسلاخِهِ (أيِ جِلدِه) .

وهذا الكلامُ واضِحُ الدِلالة على أَنَّ هذا الأَميرَ متواضعٌ تَقيٌّ وَرِع ، يخافُ اللّهَ في حَياتِهِ الخاصّةِ والعامّةِ . فهو واحِدٌ مِنَ الناسِ ، وهوَ مَعَ الناس ، ولِخِدمَةِ الناس ، لا يُفارِقُهم أو يَتعالى عَليهم ، ولا

يَجِدُ أَحَداً مِنهم أَشَدَّ تَقوى مِنه ، حتّى يتمنّى لِنفسِه ما هو عِندَ ذلكَ الأَتقى .

وهذا هوَ روحُ الإسلام ، يَدعو إلى المساواةِ والتَكامُل ، والتَنافُسِ في أَعمالِ الخَير ، لا في جَمعِ الأَموالِ أو غَيـرِها مِن أَغـراضِ الحَياةِ الماديّة .

***

لا يؤثر نفسه :

وينتَشِرُ في مدينةِ يَثرِبَ ، كما ينتشِرُ في مدينةِ دِمشق ، أَنَّ الخليفةَ عمرَ بـنَ الخطّاب ، خَشي أَن يُصابَ « أَخوهُ » أَبو عبيدةَ بالطاعون . فأَرسلَ إليه يستَقدِمُه مِن فلسطين إلى المدينةِ المنوَّرة ، عاصمةِ الدولة . .

كما شاعَ أَن ردَّ أَميرِ الجيوشِ جاءَ سَلبا . لقد رَفضَ أَبو عبيدةَ أَن يترُكَ جُندَه ، يُعانونَ مِن الحَرب

ومنَ الوَباء ، فردَّ على استدعاءِ الخَليفة بأسلوبهِ اللّيِّن المتواضع ، البَعيدِ الدِلالة على إيمانه بقضاءِ الّله . . . وعلى حُبِّهِ لأبنائِه ، جُندِ المُسلمين . . . كَتب أَبو عبيدة إلى الخليفةِ يقول ، جواباً على رسالتِهِ : « إني يا أَميرَ المؤمنين في جُندِ المُسلمين . ولن أَرغَبَ بِنفسي عَنهم ».

انه لا يريدُ أَن يؤثِرَ نفَسهُ أَي يُفضِّلها على عامّةِ النُفوس ، فَيَنجو مِن الوَباءِ ، الذي كانَ يَحصِدُ الجندَ بالعَشَرات بَل بالمِئات - وليس مِن دواءٍ آنَذاكَ لِمُكافحتِه .

ثم زاد « أمينُ الأمّة » قائلاً : « وإنكَ يا أميرَ المؤمنين تَستَبقي مَن لَيس بباقٍ . فإذا أَتاكَ كِتابي هَذا ، فَحُلّني مِن عَزمَتِك ، وَأْذَن لي في الجُلوس . . . » أَي البقاءِ حيثُ أَنا !

فهل هناك من إيمانٍ أَصدق ، وحبٍّ أعمق ، وتعلُّقٍ بالواجِبِ أَتَمّ ؟

***

شهيد الطاعون :

وفي دِمشقَ ، عمَّ المنازلَ والأسواقَ وقلوبَ الناس . . . حُزنٌ شَديدٌ يومَ سَمِعوا نَبَأً وَرَدَ مِن فلسطين ، اهتزَّت لهُ القلوبُ وغامت العُيون . ذلك أن أَبا عبيدة ، أمينُ الأمة ، وأميرُ الجُيوش ، قد ذَهبَ به الطاعونُ مَعَ مَن ذَهَب بهم . . . وتَعالى دعاءُ الناس : رَحِمَ اللهُ أَبا عُبيدة !

لقد صَحَّ ما توقَّعَهُ أميرُ المؤمنين عُمر . . . فلم يَكُن مِن مَهربٍ مِن قَضاءِ الله : ﴿ أَينَما تَكونوا يُدرِكْكُم الموَت ﴾ ! وقد أَدركَ الموتُ أَبا عبيدة ، في أَرضِ « ثاني الحرمين » ، وأولى القِبلَتين ، في فلسطين . . . لِيزيدَ تُرابَها قُدسيّة ، وسماءَها إشراقاً

وإنما تَغـلو الأرضُ بما تُسقى به مِن دِماء الشُّهداء ، وكان أبو عبيدة ـ رَحِمَه الله ـ مِن أعزِّ الشُّهداء على الأُمة ، وعلى كلِّ مؤمنٍ بالقِيَمِ التي جاء بها الإسلام ، رحمـةً للعالَمين !

***

وصية أبي عبيدة :

وقد أوصى رحمه اللهُ الناسَ وَصيَّةً ، لا أَجملَ ولا أَروعَ ، يومَ أَدركته الوفاةُ . فقال مخاطباً الناس عامة : « أُوْصيكُم بالقيامِ بفرائض الدين».

ـ تواصَوا . . . وانصحـوا لِأمرائِكم ، ولا تَغِشُّوهم .

ـ لا تُلهِكُمُ الدُنيا ، فإن امرأً لو عُمِرَّ أَلفَ حَول (عام) ، ما كانَ لهُ بُدٌ مِن أَن يَصيرَ إلى مَصرَعي ، هذا الذي تَرَون .

ـ اَللّهُ كَتَبَ الموتَ على بَني آدَمَ . وأَكيَسُ بَني

آدَمَ أَطوَعُهم لِلّه ، وأَعمَلُهُم لِيوم ِ مَعادِه . »

هذه الوصيةُ الكريمةُ تحمِلُ معانيَ الأَخلاقِ كـافة ، وخُـلاصَةَ تَعـاليم ِ الإِسـلام . فـالقيـامُ بالفَرائض ِ أَساسُ العَقيدة ، وإذا جاءت الوصيةُ بها مِن رَجل ٍ كأبي عُبيدة ، لم يُهمِل في حَياتِهِ فريضةً ، حتى وهوَ يموتُ بالطاعون ، جاءَت وصيَّةً مِن القَلب ، من الأَعماق ، فهيَ تَصِلُ إلى القلوب من أَقربِ طريق .

ودعوتُه إلى التَواصي بينَ الناس ، ونُصحِ الحُكّام ، والامتِناع عن غِشِّهم ، هيَ دروسٌ في التَـربيةِ الاجتمـاعيّـة الإِسـلاميـة ، والمُـواطنيّـة الصَحيحة . فتخاذُلُ الناس وتعادي أَفراد الأُمة مَجَلَبَةُ لِلضُعف والذُلّ ، والخَراب والدمار ، ضُعفِ الحاكِم الذي يَتقّوى بشعبِهِ ، وذُلِّ الرَعيّة التي تعتزُّ بِحُكامِها ـ ثُمّ بالتالي ذُلِّ الوطَنِ وَدمارِه .

أما غِشُّ الحكام والإعـراضُ عن نُصحِهم فَمَضْيعَةٌ لِلَحَقّ والعَدل ، ومَجلَبـةٌ لـلاستِبـدادِ والظُلم .

الإعراضُ عن الدُنيا لا يعني القُعودَ والكَسَل ، بل هُو يهدِفُ إلى العَمل للدنيا كأَنَّ الإنسانَ يعيشُ ابدا ، والعملَ للآخرةِ كأنّه يموتُ غَدا . وأن يعيشَ طيِّبَ القلب في هـذِهِ الحياةِ ، غيـرَ متمسِّـكٍ بالمادِيات الفانية ، بل عليه ان يتمسَّكَ بالمناقِبِ والقِيَمِ الباقية ، لِينجوَ مَعَ الناجين يومَ المعَاد ، حينَما يجيء أَجَلُهُ ، ولكُلِّ أمةٍ أَجَل ، ولِكلِّ أَجَلٍ كِتاب .

وأخيراً نَجِدُ هذا الصِحابيّ الكبيرَ يربِطُ في وَصيّتهِ للناس ، قُبيَلَ انطفاءِ تلك الشُعْلةِ الهاديةِ المُرشِدة ، بينَ الإيمان والعَمَل ربطاً مُحكما . فلا إيمانَ يَصِحُّ بلا عَمَـل ، ولا عَمَلَ يَصلُحُ دونَ

إيمان . وهذا ما جاءَ في القُرآنِ الكريمِ ، وفي أحاديثِ الرسولِ العظيم ، وسِيرةِ صِحابتِهِ المكًرمين .

هذا الموقفُ السَليم ، في الحياةِ الدنيا ، هوَ الذي أَهَّلَ المسلمينَ لَلفَوز ، على خُصومِهم ، ولقيامِ دَولةِ الإسلام على أَنقاضِ الممالِكِ السابِقة .

* * *

بكاء الناس :

من هنا جاءَ حُزنُ الناسِ جميع الناسِ ، وتبادُلُهم التَعزيةَ بالمُصاب العَظيم ! كأَنَّ كلَّ بيتٍ فَقَدَ رُكنَه ، بفقدِ أَمين الأمّة ، وكلَّ رجل أُصيبَ يومَ أُصيبَ أميرُ الجُيوشَ ، فكان كلُّ مُسلمٍ حزينا ، وكُلُّ جندي باكياً أميرَه ، كما يَبكي الأبناءُ آباءَهم .

وقد عبَّرَ عن هذهِ المشاعِر أَحَدُ أُمراء الجُند ،

وهو مُعاذُ بـنُ جَبَل ، فقال ، وهو يخطُبُ في الناسِ مؤبِّناً الراحِلَ العظَيم :

« إنكّم أيُّها المسلمون فُجعتُم برجُلٍ . . . ما أعلَمُ أني رأيتُ عَبداً (لله) أَبَرَّ صَدراً ، ولا أَبعَدَ عَنِ الغائلة ! » (ويعني الحقد)

حتى أَميرُ المؤمنين عُمر بـنُ الخَطَّابَ بكى ، وقال : « وَدِدتُ لو استخلَفتُهُ بَعدي ! » .

رحِمَ اللَّهُ أَبـا عبيدة ، أُمينَ الأمـة ، عَدَدَ حَسَناتِه . إنه مِن الشُهَداءِ الأَبرارِ العِظام . كانَ قائداً مُحنَّكا ، ورجلاً سياسيّاً مُستقيمـا ، ومُؤمِناً عظيماً .

لَولا حِكمتُه التي عامل بها مَن تعاوَنَ مَعَهم ، مِن القادةِ والأُمراءِ ، والناسِ ، لَفَسَدَ كلُّ شيء .

إن عصيتني يا عمرو أطعتك :

ويذكرُ الناسُ ما كانَ مِن مَوقِفِ عَمرْو بنِ العاصِ ، في غزوة « ذاتِ السَلاسِل » على عهدِ النَبيِّ عليهِ السلام .

هناك كان المسلمون بِقيادةِ ابنِ العاص . وقد شَعر القائِدُ بحاجتِهِ إلى مَدَد . فأرسل إليه النبيُّ (ﷺ) جَماعةً مِن المُهاجرينَ والأنصار .

فَلمَّا وَصلَ المَدَدُ ، رَفض ابنُ العاصِ أَن يرضَخَ لإمارة أَبي عبيدة ، وقال : « أنا أَميرُكُم هُنا ! وأنا أرسلتُ إلى رسولِ اللّهِ أستَمِدُّهُ بِكُم . »

وهكذا كادت تَحدُثُ فِتنةٌ : المهاجِرون قالوا لعمرو : أَنتَ أميرُ أصحابك . اما أَميرُنا فأَبو عُبيدة .

وطالَ الجَدَل . فعمرو بنُ العاص يُصِرُّ على أَنهم جاءوا مَدَداً . فهو إذن أَميرُ جُندِه ، وأَميرُ هؤلاءِ الذين انضمّوا إليه .

وهُنا ظَهرَت عَبقرِيّةُ ابنِ الجرّاح في تَواضُعِه وَرَحابَة صَدرِه ، ، وحُسنِ سياسَتِه فقال لعمرو : « تَعَلَّمْ يا عَمرو ! انَّ آخِرَ ما عهِد إليَّ بِهِ رسولُ **الله** أن قال : إذا قَدِمتَ على صاحِبِك ، فَتَطاوعا . . . (أي لِيُطع أَحدُكما الآخرَ) . وأنتَ إن عَصَيتني أَطَعتُك (أو لأُطيعَنّك) .

هذا الكلامُ النبيلُ ، اللّينُ ، الحَكيم ، الدالُّ على رَحابة صَدر ، ومرونـةِ تفكيـرٍ ، وحُسن تدبيرٍ . . . فضلاً عَن كلِّ ما اتَّصفَ بهِ هذا الرجُلُ العَظيم ، هذا الكَلامُ كانَ كافياً لِحَسمِ النِزاع ، ودَرءِ الفِتنةِ والانقِسام ، أمامَ عَدوّ مُشتَرَك ، جاءوا جميعُهم لِكِفاحِه .

ويتساءَلُ أَحدُ الناس،حينَما سَمِع هذِهِ المأثَرةَ مِن مآثِرِ أَمينِ الأُمّة، فيقول : « لماذا لا يَسيرُ العاملون ، في سَبيلِ قَضيّةٍ واحِدةٍأو هدَفٍ واحِد، عَلى ضَوءِ هذهِ الخُطّةِ الحَكيمة . . . يَتطاوَعون ،

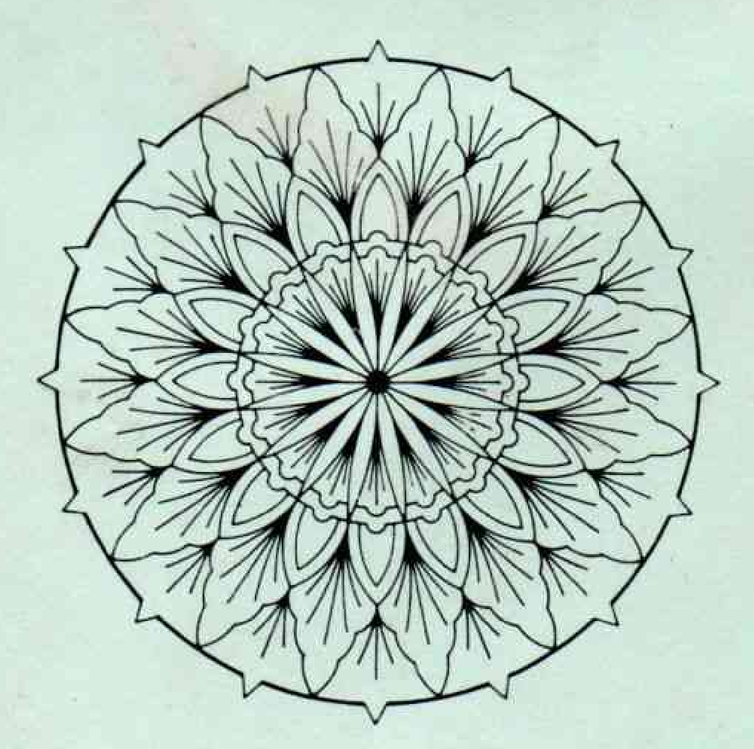
كيلا يكون انقِسام ؟

ويجيبُ آخرُ مِن أهلِ الشامِ ذلكَ المتسائِلَ مِن أهل المَدينةِ المُنوَّرة : « لو كانوا كأبي عبيدة وعمرو ابنِ العاص ـ ومَن كان مَعَهما ـ لسادَت هذهِ الروحُ البَنّاءةُ المتجرِّدةُ بينَهم ، ولاستَمَرَّ سَيرُ القافِلة ، دائماًإلى الأمام !

صدر من هذه السلسلة

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ أبو عبيدة بن الجراح
٦ ـ حمزة بن عبد المطلب
٧ ـ عبد الله بن عمر
٨ ـ عبد الله بن عباس

رقم : 79-57/5



ه دار النفائس

بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقياً : دانفايسكو